المتشابه في القرآن الكريم

م.م. عمار محمد صالح

مركز البحوث والدراسات الإسلامية (مبدأ)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

فان الله تعالى قد حفظ لنا القران الكريم من تزييف المزيفين فلم تنل منه أيدي المغرضين لكنهم حاولوا تأويله ليصرفوا معناه إلى ما يريدون لتأييد آرائهم الباطلة فاتخذوا موضوع المتشابه مغمزا نفذوا من خلاله ليتكلموا بما لم يتكلم به سلف هذه الأمة الأبرار فاخترت هذا الموضوع لأبرز ما فيه من جوانب ناقلا كلام العلماء فيه و مبينا زيف المارقين فوسمت بحثي (المتشابه في القران الكريم) فكانت خطة البحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: المتشابه في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: منشأ المتشابه.

المبحث الثالث: أنواع المتشابهات.

المبحث الرابع: الحكمة من ذكر المتشابهات في القران الكريم.

المبحث الخامس: أقوال العلماء في متشابه الصفات.

ثم ختمت البحث بما توصلت إليه من نتائج أردفتها بذكر المصادر والمراجع ثم تراجم الأعلام الذين ورد ذكرهم في ثنايا البحث..

وكان منهجي فيه منهجا علميا اذ نقلت أقوال العلماء معزيا القول لقائله معتمدا على المصادر والمراجع الموثوقة المعتمدة.

وأخيرا فهذا ما استطعت ان أقدمه في هذا المجال فان كان مفيدا فهو محض فضل الله الكريم المنان، وان كان غير ذلك فمن نفسي، والله الموفق لما فيه الخير والسداد..

المبحث الأول
المتشابه.... تعريفه وحكمه

المتشابه في اللغة:

يستعمل اللغويون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة والمشاركة المؤدية الى الالتباس. غالباً يقال، تشابها واشتبها أي شبه كل منها الأخر حتى التبسا.

والمتشابه مأخوذ من التشابه وهو إن يشبه احد الشيئين الآخر بحيث لا يميز احد الشيئين عن الأخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى[1]، قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[2]. أي يشبه بعضه بعضاً لوناً لا طعماً وحقيقة فيما يتعلق بثمار الجنة. والتشابه لغة التماثل.

وقيل متماثلاً في الكلام والجودة. وتشابه الكلام هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً[3] وقد وصف الله تعالى القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[4]. فالقرآن كله متشابه: أي انه يشبه بعضه بعضاً في الكمال والجودة ويصدق بعضه بعضا في المعنى ويماثله في إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإعجاز في ألفاظه ومعانيه حتى انك لا تستطيع إن تفاضل كلماته وآياته في هذا الحسن والإحكام والإعجاز.

المعنى الاصطلاحي:

هو اسم لما انقطع رجاء معرفة المراد منه لمن اشتبه فيه عليه[5] ولا يتكرر وجود التشابه في الكتاب العزيز، ولكن ميدانه العقيدة وأصول الدين ولا وجود له في الإحكام التكفيلية، لان المراد من التشابه الحروف المقطعة في أوائل السور، مما استأثر الله جل وعلا بعلمه كقيام الساعة والروح ووقت خروج المسيح ووقت طلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وصفاته وأفعاله جلت قدرته التي توهم بمشابهتها لصفات وأفعال خلقه، والله تعالى منزه عن ذلك كصفة الوجه واليدين والاستواء على العرش. وهو المخفي الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه[6].

ويعرّفه الإمام احمد ﷺ فيقول: إما التشابه فهو الذي لا يستقل بنفسه، بل يحتاج الى بيان، فتارة يبين بكذا، وتارة يبين بكذا لحصول الاختلاف في تأويله [٧].

المبحث الثاني
منشأ التشابه

نعلم مما سبق إن منشأ التشابه إجمالا هو خفاء مراد الشارع من كلامه، فمنه ما يرجع خفاؤه الى اللفظ.

ومنه ما يرجع خفاؤه الى المعنى.

ومنه ما يرجع خفاؤه الى اللفظ والمعنى.

وسنبين ذلك فيما يأتي:

المطلب الأول: هو ما كان التشابه راجعاً الى خفاء اللفظ وحده

وهذا المطلوب من التشابه يقسم الى مفرد ومركب والمفرد قد يكون الخفاء فيه ناشئاً من جهة غرابته وندرة استعماله[٨] كما هو وارد في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾[٩] وهو ما ترعاه البهائم بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[١٠] ومثال التشابه في المفرد بسبب اشتراكه بين معاني عدة، لفظ اليمين في قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾[١١] أي قيام إبراهيم عليه السلام بضرب أصنام قومه ضرباً شديداً باليمين من يديه لا بالشمال لان اليمين أقوى. الجارحتين. أو قيامه بضربها بسبب اليمين التي حلفها ونوه بها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[١٢] كل ذلك جائز ولفظ اليمين مشترك بينهما.

ومثال التشابه في المركب بسبب اختصاره قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[١٣] فان خفاء المراد فيه جاء من ناحية إيجازه والأصل: إن خفتم الا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء..[١٤] ومعناه إنكم إذا تحرجتم من زواج اليتامى مخافةً إن تظلموهن، فأمامكم غيرهن فتزوجوا منهن ما طاب لكم.

وقيل إن القوم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنا.

فانزل الله تعالى الآية. ومعناها إن خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا أيضا.. وتبدلوا به الزواج الذي وسع الله عليكم فيه فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع.

ومثال التشابه يقع في المركب بسبب بسطه والإطناب فيه مثل قوله جلت حكمته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١٥] فان حرف الكاف لو حذف وقيل (ليس مثله شيء) كان اظهر للسامع من هذا التركيب الذي ينحل الى (ليس مثل مثله شيء) وفيه من الدقة ما يعلوا على كثير من الإفهام.

ومثال التشابه يقع في المركب لترتيبه ونظمه كقوله جلت قدرته: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾[١٦] ولو قيل انزل الله على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً لكان اظهر[١٧].

وتأتي في مقدمة هذا (المطلب) فواتح السور المشهورة لان التشابه والخفاء في المراد في منها، جاء من ناحية ألفاظها لا محالة.

المطلب الثاني: خفاء المعنى وحده

وهو ما كان التشابه فيه راجعا الى خفاء المعنى وحده مثال ذلك كل ما جاء في القرآن الكريم في وصف الله تعالى، أو لأهوال يوم القيامة أو لنعيم الجنة وعذاب النار، فان العقل البشري لا يمكن إن يحيط بحقائق صفات الخالق، ولا بأهوال يوم القيامة ولا بنعيم أهل الجنة[١٨].

وينبه (الزرقاني) أن هذا النوع من الخفاء لم يجيء ناحية غرابة في اللفظ أو اشتراك فيه بين عدة معان أو إيجاز أو أطناب مثلا، فتعين إن يكون من ناحية المعنى وحده.

المطلب الثالث: وهو ما كان المتشابه فيه راجعا الى اللفظ والمعنى معاً

وهناك أمثلة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[١٩] فان من لا يعرف عادة العرب في الجاهلية لا يستطيع تفسير هذا النص القرآني الكريم على وجهه الصحيح ولقد كان من عادة العرب الأنصار إذا احرموا في أوقات الحج والعمرة لم

يدخل احد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا[٢٠] من باب، فان كان من أهل المدر[٢١] نقب نقباً في ظهر بيته يدخل منه. وان كان من أهل الوبر خرج خلف الخباء[٢٢].

فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾[٢٣].

فهذا الخفاء الذي في هذه الآية يرجع الى اللفظ بسبب اختصاره، ولو بسط لقيل: وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها إذا كنتم محرمين بحج أو عمرة ويرجع الخفاء الى المعنى أيضا لأن هذا النص على فرض بسطه كما رأيت، لابد من معرفة عادة العرب في الجاهلية، وإلا تعذر فهمه وأكد (الراغب) إن المتشابه بالجملة ثلاث أضرب:

(الأول) متشابه من جهة اللفظ فقط.

(الثاني) متشابه من جهة المعنى فقط.

(الثالث) متشابه من جهة اللفظ والمعنى.

والأول ضربان: احدهما يرجع الى الألفاظ المفردة نحو (الأب) و (يزفون) أو الاشتراك كاليد اليمنى[٢٤] وثانيهما يرجع الى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب:

ضرب لاختصار الكلام نحو ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾[٢٥].

وضرب لبسطه نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٢٦] لأنه لو قيل (ليس مثله شيء) كان أظهر للسامع.

وضرب لنظم الكلام نحو ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾﴾[٢٧] تقديره انزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا.

(والمتشابه من جهة المعنى) أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة فان تلك الأوصاف لا تتصور لنا، إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو ليس من جنسه[٢٨].

والمتشابه من جهتها خمسة أضرب:

من جهة الكمية: كالعموم والخصوص نحو (اقتلوا المشركين).

والثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٢٩].

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٣٠].

والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها نحو ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[٣١] ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[٣٢] فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

والخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسر: كشروط الصلاة والنكاح. وبذلك نفهم إن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم[٣٣].

المبحث الثالث
أنواع المتشابهات

يمكننا إن ننوع المتشابهات على ضوء ما سبق ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما لا يستطيع البشر جميعاً إن يد صلوا إلـ ـيه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التي استأثر الله تعالى بها ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٣٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾[٣٥] وليس هذا باتفاق العلماء[٣٦].

النوع الثاني: ما يستطيع كل إنسان إن يعرفه عن طريق البحث وا ـلدرس كالمتشابهات التي نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب ونحو مما سبق كالألفاظ الغريبة والإحكام القلقة[٣٧].

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون ـعامتهم ولذلك أمثلة كثيرة من المعاني العالية التي تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم[٣٨] وهو المشار إليه في قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ووصله بقوله تعالى ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

قال الراغب: المتشابه على ثلاثة اضرب، ضرب لا سبيل الى الوقوف عليه، كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك[٣٩]. وضرب للإنسان سبيل الى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة، وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى

على من دونهم وهو المشار إليه بدعائه ﷺ لابن عباس **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** .

المبحث الرابع
الحكمة من ذكر المتشابهات في القرآن الكريم

عرفنا إن للمتشابهات أنواع ثلاثة، وان لها حكمة بل حكماً في ذكر الشارع إياها(٤٠). فالنوع الأول: وهو ما استأثر الله بعلمه – تلوح لنا فيه حكم خمس:

(الأولى) رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء وإذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً، فكيف لو تجلى سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا لا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم. ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم، ليعيشوا في بحبوحة من أعمارهم، فسبحانه من إله حكيم رحمن رحيم(٤١).

(الثانية) الابتلاء والاختبار: أيؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أو لا ؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا، وان لم يعرفوا على التعيين والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به، وهو الحق من ربهم، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة(٤٢).

(الثالثة) ما ذكره الفخر الرازي بقوله: إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم لا متحيز ولا مشار إليه، ظن إن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التحليل، فكان الأصلح إن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح.

فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر من باب المتشابه.

والقسم الثاني وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو المحكم وهذه الحكمة ظاهرة في تشابه الصفات.

(الرابعة) إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وغزر علمه وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وانه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً. وان

الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء. وهنالك لا يخضع العبد ويخشع ويطامن كبرياؤه ويخنع ويقول ما قالت الملائكة بالأمس ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[٤٣].

قال بعض العارفين: العقل مبتلى باعتقاد أحقية المتشابه، كابتلاء البدن بأداء العبادة. كالحكيم إذا صنف كتاباً أجمل فيه أحيانا، ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه. وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره. وقيل: لو لم يبتل العقل الذي هو اشرف البدن، لاستمر العالم في أبهة العلم على التمرد، فبذلك يستأنس الى التذلل بذل العبودية. والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها، استسلاماً واعترافاً بقصورها [٤٤] ولهذا ختم الآية يريد آية ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٤٥] بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾[٤٦] تعريضاً للزائغين ومدحاً للراسخين، ويعني من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه، فليس من أولى العقول.

ومن ثم قال الراسخون في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[٤٧] فخضعوا لبارئهم بعد إن استعاذوا به من الزيغ النفساني[٤٨].

(الخامسة) ما ذكره الفخر الرازي أيضا بقوله: لو كان آي القرآن – كله محكماً بالكلية، لما كان مطابقاً الا لمذهب واحد، وكان بصريحة مبطلاً لجميع المذاهب المخالفة له. وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه، إما وجود المتشابه والمحكم فيه فيطمع كل ذي مذهب إن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه فيضطر الى النظر فيه، وقد يتخلص المبطل عن باطله إذا أمعن فيه النظر فيصل الى الحق [٤٩].

(وإما النوع الثاني والثالث من المتشابهات) فتلوح لنا في ذكره واشتمال القرآن عليه خمس أيضا:

(الاولى): تحقيق إعجاز القرآن لان كل ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي الى التشابه، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان. ولو أخذنا في شرح هذا لضاق بنا المقام، وخرجنا جملة من هذا الميدان الى ميدان علوم البلاغة وما حوت من خواص وإسرار للإيجاز والإطناب والمساواة والتقديم والتأخير، والذكر والحذف والحقيقة والمجاز ونحو ذلك.

(الثانية): تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه، لان كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دال على معان كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام، ولو عبر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾[٥٠] وكذلك يدرك القارئ لدقة القرآن وعلو أسلوبه روعة ولذة تغريه على قراءته، وتشجعه على استظهاره وحفظه.

(الثالثة): ما ذكره الفخر الرازي بقوله متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول الى الحق أصعب واشق وزيادة المشقة توجب مزيدا من الثواب . قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[٥١].

(الرابعة): ما ذكره الفخر الرازي أيضا بقوله[٥٢] باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، يضطر الناظر فيه الى تحصيل علوم كثيرة مثل اللغة والنحو وأصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال. فكان وجود المتشابه سببا في تحصيل علوم كثيرة .

(الخامسة): ما ذكره أيضا بقوله باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه الى الاستعانة بالأدلة العقلية، فيتخلص من ظلمة التقليد. وفي ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، ولو كان كله محكماً لما احتاج الى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملاً [٥٣].

المبحث الخامس
مواقف العلماء من متشابه الصفات

عرفنا إن المتشابهات تجمع ألوانا مختلفة ونزيد هنا إن من بينها لونين كثر الكلام فيهما[٥٤]:

(أولهما): فواتح السور نحو (ألم، ق، طس، المص، الر، وحم، ون، كهيعص، حم عسق) الخ.

(ثانيهما): الآيات المشكلة الواردة في شأن الله تعالى، وتسمى آيات الصفات أو متشابه الصفات مثل قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[٥٥].

الرأي الرشيد في متشابه الصفات

اتفق العلماء على امور ثلاثة تتعلق بهذه المتشابهات، ثم اختلفوا فيما وراء ذلك[٥٦] (فأول ما اتفق عليه) صرفها (المتشابهات) عن ظواهرها المستحيلة، واعتقاد ان هذه الظواهر غير مراده للشارع قطعاً. كيف وهذه الظواهر باطلة الأدلة القاطعة، وبما هو معروف من الشارع نفسه في محكماته؟

(ثانياً) انه إذا توقف الدفاع عن السلام على التأويل لهذه المتشابهات وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين، ويرد طعن الطاعنين.

(ثالثاً) إن المتشابه إن كان له تأويل واحد يفهم منه فهما قريباً، وجب القول به إجماعا وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[٥٧] فان الكينونة بالذات مع الخلق مستحيلة قطعا وليس لها ذلك الا تأويل واحد، هو الكينونة معهم بالإحاطة علما وسمعا وبصرا وقدرة وإرادة.

اختلاف العلماء فيما وراء ذلك

أما اختلاف العلماء فيما وراء ذلك، فقد وقع على مذهبين[٥٨]:

المذهب الأول: مذهب السلف ويسمى مذهب المفوضة (بكسر الواو وتشديدها) وهو تفويض معاني هذه المتشابهات الى الله وحده بعد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة ويستدلون على مذهبهم هذا بدليلين:

أحدهما عقلي: وهوان تعيين المراد من هذه المتشابهات إنما يجري على قوانين اللغة واستعمالات العرب، وهي لا تفيد الا الظن، مع إن صفات الله من العقائد التي لا يكفي فيها الظن، بل لابد فيها من اليقين، ولا سبيل إليه، فلنتوقف ولنكل التعيين الى العليم الخبير.

والدليل الثاني نقلي: يعتمدون فيه على عدة أمور:

منها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ **فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم** (٥٩).

واخرج السيوطي عن أبي مالك الأشعري انه سمع رسول الله ﷺ يقول **لا أخاف على أمتي الا ثلاث خلال: إن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وان يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله وما يعلم تأويله الا الله** (٦٠). كذلك اخرج السيوطي إن رسول الله ﷺ قال: **انزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام لا يعذر احد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير يفسره العلماء أو متشابه لا يعلمه الا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب** (٦١).

واخرج الدارمي في مسنده عن سليمان بن يسار: إن رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر وقد اعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ قال: إنا عبد الله بن صبيغ، فاخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى أدمى رأسه(٦٢). وفي رواية أخرى فضربه بالجريد حتى ترك على ظهره دبره، ثم تركه حتى برأ ثم عاد، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود فقال: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلاً فإذن له الى أرضه وكتب الى أبي موسى الأشعري: لا يجالسه احد المسلمين. والدبرة: بفتحات ثلاثة هي قرحة (الدابة والمراد هنا انه صير في ظهره من الضرب جرحاً دامياً كأنه قرحة في دابة).

ورضي الله عن عمر فان هذا الأثر يدل على إن ابن صبيغ فتح أو حاول إن يفتح باب فتنة بتتبعه متشابهات القرآن الكريم بكثرة الكلام فيها والسؤال عنها وهذه الأحاديث والآثار تدل على إن المتشابه لا يعلمه الا الله تعالى وان الخوض فيه مذموم(٦٣). ومنها ما ورد عن الإمام مالك ﷺ: سئل عن الاستواء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ ﴿٦٤﴾ فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عن هذا بدعة وأظنك رجل سوء.. أخرجوه عني(٦٥) يريد إن يقول ﷺ إن مسألة الاستواء معلومة من حيث الشكل الظاهر

التي تدل عليها الأوضاع اللغوية، الا إن ذلك يستلزم التشبيه المحال على الله تعالى، وهذا محكوم بالدليل القاطع، الا إن كيفية هذا الجلوس والشيء الذي يرغب الشارع في إظهاره مجهول ولا يوجد دليل عندنا عليه.

والسؤال عن تعيين مراد الشارع وشكل الهيئة التي عليها الله سبحانه وتعالى يعتبر بدعة، وطريقة مخترعة في الدين مخالفة لإرشادات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، القاضية بوجوب تقديم المحكمات ورفض المتشابهات أو عدم إتباعها والإيمان بها فقط دون استفسار قد يؤدي الى الوقوع في المحذور[٦٦].

المذهب الثاني:

مذهب الخلف ويسمى المؤولة (بتشديد الواو وكسرها) وهم فريقان:

الأول: يؤولها بصفات غير معلومة على التعيين ثابتة له تعالى زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعيين، وينسب هذا الى أبي الحسن الأشعري.

الثاني: يؤولها بصفات نعلمها على التعيين فيحمل اللفظ الذي استحال ظاهرة من هذه المتشابهات على معنى يسوغ لغة، ويليق بالله تعالى عقلا وشرعا. وينسب هذا الرأي الى ابن برهان وجماعة من المتأخرين.

وكان إمام الحرمين يذهب إليه ثم يرجع عنه، وقد قال في (الرسالة النظامية) الذي نرتضيه دينا وندين لله به عقلا إتباع سلف الأمة فأنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها [٦٧].

وحث الإمام الغزالي في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) على إتباع مذهب السلف ومن تبعهم.

وقد قال أبو عمر بن الصلاح: وعلى هذه الطريقة معنى صدر الأمة وساداتها، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقادتها واليها دعا أئمة الحديث وأعلامه، ولا احد من المتكلمين من أصحابنا يصد عنها ويأباها[٦٨].

ويفهم من جميع هذه الأقوال على أن الاتفاق حاصل على وجوب الأخذ بالمحكم من القرآن الكريم والعمل به والإيمان بالمتشابهات فقط وترك أمرها للشارع وتفويض معانيها الى الله تعالى جلت قدرته وتجنب الوقوع في المحذور الذي قد يوقع صاحبه في الكفر

والضلالة ويؤدي الى قيام الفتنة في صفوف المسلمين ومن الله تعالى جلت قدرته العزم والتوفيق والسداد.

الخاتمة

الحمد لله على توفيقه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والصديقين وعلى آله وأصحابه الى يوم الدين.

فلقد تناولت بالبحث والمتابعة أقوال العلماء الأعلام رضوان الله عليهم أجمعين في الآيات القرآنية من المتشابهات وتبين لي بحمد الله وشكره النتائج التالية:

١- قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ وهذا يعني إن القرآن ينقسم الى محكم ومتشابه كونه يشبه بعضه البعض في الإتقان والإحكام في الحق والصدق والإعجاز.

٢- إن الطريق السليم في حكم المتشابه هو التسليم به وعدم القطع بمراده ولا سيما مما استأثر الله جلت قدرته بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أول السور.

٣- لا وجود للمتشابه في الأحكام التكلفية لان المراد من المتشابهات العمل والتطبيق لا الاعتقاد فقط.

٤- إن الحكمة من المتشابه هي الدعوة الى التفكير والنظر والتبصر والبحث من اجل الوصول الى المعرفة لان ديننا نهانا عن التقليد الأعمى كما إن مواصلة البحث يكون ارجى في الأجر.

٥- إن المحكم ما وضح معناه ولا يحتمل التأويل إلا وجهاً واحداً.

أما المتشابه فهو ما احتمل أوجهاً ولا يستقل بنفسه إلا برده الى غيره ويؤمن به ولا يعمل به والإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(تراجم الأعلام)

١- احمد بن حنبل:
إمام المذهب الحنبلي واحد الأئمة الأربعة كان محدثاً إماما في الحديث وكان للإمام الشافعي الفضل في تكوين بن حنبل توفي سنة ٢٤١هـ الأعلام: ١/ ١٩٢، الفتح المبين ١/ ١٥٦ – ١٦٣.

٢- ابن برهان: أبو الفتح احمد بن علي الوكيل فقيه وأصولي شافعي شذرات الذهب ٤/ ٦٠، الأعلام ١/ ٩٦٧.

٣- أبو موسى الأشعري: عبد الله بن سليم، صحابي كان أمير البصرة في زمن عمر ﷺ توفي سنة ٤٤هـ.
حلية الأولياء ١/ ٢٥٦.

٤- عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي:
حبر الأمة ومن علماء الصحابة وهو مؤسس مدرسة التفسير توفي سنة ٦٨هـ في الطائف.
حلية الأولياء ١/ ٣١٤. الإصابة ١/ ٣٢٢.

٥- ابن مسعود: عبد الله بن مسعود الهذلي، صحابي من كبار الصحابة ومن السابقين الى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة توفي سنة ٣٢هـ.
حلية الأولياء ١/ ١٢٤، الاستيعاب ٢/ ٣١٦.

٦- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي البغدادي علامة عصره كان حنبلي المذهب، وعلامة في التاريخ الحديث توفي سنة ٥٩٧هـ.
وفيات الأعيان ١/ ٢٧٩، الفتح المبين ٢/ ٤٠، الاعلام ٤/ ٨٩.

٧- إمام الحرمين: عبد الملك بن عبد الله الجويني، اعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي وهو شيخ الغزالي توفي سنة ٤٧٨هـ.
وفيات الأعيان ١/ ٢٨٧، الاعلام ٤/ ٣٠٦.

٨- الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد المفضل، أديب حكيم من علماء أصفهان توفي سنة ٥٠٢هـ.
الاعلام ٢/ ٢٧٩.

٩- ابن الصلاح: عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري الكردي احد الفضلاء المقدمين في الحديث والتفسير توفي سنة ٦٤٣هـ بدمشق.
وفيات الاعيان ١/ ٣١٢، شذرات الذهب ٥/ ٢٢١، الاعلام للزركلي ٤/ ٣٦٩.
١٠- الدارمي: عثمان بن سعد بن خالد الدارمي السجستاني/ محدث له مسند كبير توفي سنة ٢٨٠هـ.
مختصر الاعلام للزركلي ٦٢٦.
١١- ابن حزم: علي بن احمد بن سعيد القرطبي الظاهري كان والده وزيراً وابتدأ طلبه للعلم على علماء الشافعية، ثم انتقل الى مذهب أهل الظاهر، ويعد من أذكياء عصره توفي سنة ٤٥٦هـ.
وفيات الاعيان ٣/ ٣٢٥.
١٢- عائشة: عائشة بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنهما) أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ كانت اعلم نساء المسلمين بالدين وأكثرهن حديثاً عن رسول الله ﷺ.
الإصابة ٤/ ٣٥٩، حلية الأولياء ٢/ ٤٣.
١٣- الرازي: محمد بن عمر بن الحسين، الإمام المفسر أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل وهو قريشي النسب أصله من (طبرستان).
مختصر الاعلام: ٩٥٨.
١٤- الغزالي: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد حجة الإسلام فيلسوف متصوف له نحو مائتي مصنف. توفي سنة ٥٠٥هـ بخراسان.
وفيات الاعيان: ١/ ٤٦٣، الفتح المبين ٢/ ٨-١٠.
١٥- مالك بن انس: بن مالك الاصبحي، إمام دار الهجرة، احد الأئمة الأربعة، إمام المالكية، اختار إن تكون حلقته في التدريس في المسجد النبوي كان رحمه الله علماً من علماء الحديث والفقه.
الفتح المبين ١/ ١١٧، أصول الفقه تاريخه ورجاله: ٤٨.

الهوامش

(١) ابن منظور– لسان العرب مادة شبه ١٣/ ٥٤.

(٢) سورة البقرة– الآية ٢٥.

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١ ومباحث في علوم القرآن– مناع القطان.

(٤) سورة الزمر– الآية ٢٣.

(٥) لسان العرب– مادة شبه ١٣/ ٥٤.

(٦) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/ ٢٨٠ والإتقان في علوم القرآن ٢/ ٩.

(٧) جامع البيان للطبري ٣/ ١٦٩.

(٨) مناهل العرفان ٢/ ٢٧٨.

(٩) سورة عبس– الآية ٣١.

(١٠) سورة النازعات– الآية ٣٣.

(١١) سورة الصافات– الآية ٩٣.

(١٢) سورة الأنبياء– الآية ٥٧.

(١٣) سورة النساء– من الآية ٣.

(١٤) مناهل العرفان ٢/ ٢٧٨.

(١٥) سورة الشورى– من الآية ١١.

(١٦) سورة الكهف– الآية ١.

(١٧) مناهل العرفان ٢/ ٢٧٩.

(١٨) مناهل العرفان ٢/ ٢٨٠.

(١٩) سورة البقرة– الآية ١٨٩.

(٢٠) الفسطاط: بيت شعر. مختار الصحاح للرازي ٥٠٣.

(٢١) المدر بيوت الطين. مختار الصحاح.

(٢٢) مناهل العرفان: ٢/ ٢٨٠.

(٢٣) سورة البقرة– الآية ١٨٩.

(٢٤) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٩.

[٢٥] سورة النساء– الآية ٣.

[٢٦] سورة الشورى– الآية ١١.

[٢٧] سورة الكهف– الآية ١.

[٢٨] الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٩.

[٢٩] سورة النساء– الآية ٣.

[٣٠] سورة آل عمران– الآية ١٠٢.

[٣١] سورة البقرة– الآية ١٨٩.

[٣٢] سورة التوبة– الآية ٣٧.

[٣٣] مناهل العرفان ٢ ٢٨١١.

[٣٤] سورة الإنعام– الآية ٥٩.

[٣٥] سورة لقمان– الآية ٣٤.

[٣٦] الإحكام لابن حزم ٤٩١.

[٣٧] ورد في كتاب علوم القرآن الذي يدرس في سنة أولى كلية العلوم الإسلامية على أنها (المغلقة) ص١٩٥ وقد وردت (الإحكام القلقة) في كتاب الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٠.

[٣٨] مناهل العرفان للزرقاني ٢/ ٢٨١.

[٣٩] المصدر نفسه ٢/ ٢٨٢.

[٤٠] مناهل العرفان ٢/ ٢٨٢.

[٤١] المصدر نفسه.

[٤٢] الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٧.

[٤٣] سورة البقرة– الآية ٣٢.

[٤٤] مناهل الفرقان ٢/ ٢٨٣.

[٤٥] سورة آل عمران– الآية ٧.

[٤٦] سورة آل عمران– الآية ٧.

[٤٧] سورة آل عمران– الآية ٨.

[٤٨] الإتقان علوم القرآن ٢/ ٨ ومناهل العرفان ٢/ ٢٨٤.

(٤٩) الاتقان ٢/ ١٠.

(٥٠) سورة الكهف- من الآية ١٠٩.

(٥١) سورة آل عمران- من الآية ١٤٢.

(٥٢) مناهل العرفان ٢/ ٢٨٥.

(٥٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٥.

(٥٤) مناهل العرفان ٢/ ٢٨٧ والإتقان ٢/ ١٠.

(٥٥) سورة طه- الآية ٥.

(٥٦) مناهل العرفان للزرقاني ٢/ ٢٨٦.

(٥٧) سورة الحديد- من الآية ٤.

(٥٨) مناهل العرفان ٢/ ٢٨٧.

(٥٩) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٦٥ والترمذي في تفسير القرآن ٢٩٩٣/ ٢٩٩٤ وأبو داود في السنة ٤٥٩٨.

(٦٠) الجامع الكبير لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ١/ ٨٧٦ نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٩٥ حديث نسخة رقم ٥٢٢.

(٦١) الجامع الكبير للسيوطي ١/ ١٥٦.

(٦٢) سنن الدارمي- المقدمة ١٤٤.

(٦٣) الإتقان ٢/ ٦.

(٦٤) سورة طه- الآية ٥.

(٦٥) مناهل الفرقان ٢/ ٢٨٨.

(٦٦) مناهل العرفان ٢/ ٢٨٨.

(٦٧) الإتقان ٢/ ٦ ومناهل العرفان ٢/ ٢٨٩.

(٦٨) مناهل العرفان ٢/ ٢٨٨.

فهرسة المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي) دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٧.
٢- الاستيعاب: (لابن عبد البر) مطبوع على هامش الإصابة بمطبعة السعادة بمصر وأعاد طبعه بالاوفيست مكتبة المثنى ببغداد.
٣- أصول الفقه تاريخه ورجاله: مطبعة نهضة مصر نشر دار المريخ الرياض.
٤- الإصابة في تمييز الصحابة: مطبوع مع الاستيعاب وينظر الاستيعاب.
٥- الإعلام للزركلي: المطبعة العربية طبعة عبيد بدمشق.
٦- البرهان في علوم القرآن للزركشي لبدر الدين محمد بن عبد الله القاهرة ١٩٧٢.
٧- تذكرة الحفاظ: للذهبي طبعة الهند.
٨- التفسير العقلي للقرآن الكريم: الدكتور محمد صالح عطية جامعة بغداد كلية التربية عام ١٩٨٧.
٩- جامع البيان عن تأويل القرآن: (أبي جعفر محمد بن جرير الطبري) القاهرة ١٩٥٤.
١٠- الجامع الكبير للسيوطي: نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقم (٩٥) حديث. نسخة رقم ٥٢٢. ومنه نسخة موجودة في المكتبة المركزية ببغداد.
١١- سنن الترمذي: طبعة المكتبة السفلية في المدينة المنورة.
١٢- شذرات الذهب في أخبار من الذهب لابن العماد: ط. القاهرة.
١٣- الفتح المبين في طبقات الأصوليين: للشيخ عبد الله المراغي. ط. القاهرة.
١٤- مباحث في علوم القرآن: مناع القطان- دار المريخ- السعودية ١٩٨٨.
١٥- مختصر الإعلام: للزركلي: المطبعة العربية بمصر ١٩٢٧.
١٦- مختار الصحاح: للإمام الرازي: دار الكتاب العربي بيروت.
١٧- المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني- مطبعة البابي الحلبي ١٩٦١.
١٨- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد بن عبد العظيم الزرقاني- دار الكتب المصرية، ودار الكتاب اللبناني بيروت.
١٩- نظرات في تفسير آيات القرآن: د.محسن عبد الحميد- بغداد دار الانبار ١٩٨٠.
٢٠- وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان لابن خلكان. ط. المطبعة الميمنية.